



معركة القصیر الدائرة في سوريا بين مقاتلي حزب الله من ناحية والمعارضة السورية من ناحية أخرى، هي ذاتها احتراق جسد البوعزيزي في سیدی بوزید في تونس، الذي كان الشرارة التي أطلقت الثورات العربية في تونس ولیبیا ومصر والیمن وسوریا.

القصیر هي سیدی بوزید؛ بمعنى أنها تطلق شرارة جديدة لصراع جديد في المنطقة العربية في إطار التوجه الاستراتيجي الجديد الذي رسمه حسن نصر الله في خطابه أول من أمس. ولا أتردد للحظة في القول بأنه منذ كلمة عمر سليمان القصیرة التي أعلن فيها تتحی مبارك عن الحكم، فإن كلمة حسن نصر الله أھم كلمة لها تبعات استراتيجية حقيقة سمعتها خلال العامين الماضيين. وعندما أقول أھم كلمة لا يعني أني أتفق مع مضمونها، ولكن يعني أن تبعاتها خطيرة جدا وجديرة بالتأمل والدراسة، إذ رسمت كلمة نصر الله، رغم ما فيها من نفي للطائفية، طبيعة الصراع المقبل في المنطقة، وهو صراع سني - شيعي ولا شك، أول احتکاکاته القتالية على الأرض هو معركة القصیر، معركة وعد فيها نصر الله أنصاره بالنصر. النصر على السنة ولا ريب.

الأمر واضح إذن، ومن يقل کلاما مواربا في هذا الأمر فكمن يريد أن يغطي عین الشمس بغربال.

الحقيقة الناصعة التي لا مراء فيها اليوم هي أننا أمام الموجة الثانية من الربيع العربي معکوسا في القصیر، حيث تغير طبيعة المواجهة من مواجهة بين معارضة وأنظمة إلى صراع بين الشيعة والسنّة لرسم ملامح الشكل الاستراتيجي للمنطقة العربية لسنوات مقبلة. المنطقة العربية اليوم ستكون سجينه صراع آيديولوجي عقائدي بين سيطرة الشيعة ومعها كفیلها الإقليمي إیران، مقابل محور سني يتشكل بين تركيا ودول الخليج الفاعلة، خصوصا بعد غياب مصر عن المشهد الإقليمي كظهیر للسنّة ذي ثقل سکانی لا يستهان به.

مهم أن يعي أي قارئ معنى الشفرة في خطاب نصر الله، عندما يتحدث عن سوريا كظهیر للمقاومة حتى يعرف أن هذا

الصراع ليس صراع أفكار أو صراع رفاهية ناعماً، ولكنه صراع حقيقي له جانب عملياتي عسكري خطير إذا ما أدركنا المغزى.

كشفت الحرب الدائرة في سوريا بين الجيش السوري والمعارضة عن أن هذا الجيش يعاني من ثغرات حقيقة، فهو ليس الجيش الذي كنا نتصوره نحن من ناحية القدرات القتالية، كما أنه ليس الجيش الذي كانت تعتمد عليه إيران وحزب الله كسنده. لذا يكون جزء من تدخل حزب الله وإيران في سوريا، إضافة إلى مناصرة النظام السوري، هو في حقيقته عملية سد الثغرات في الجيش السوري وإعادة هيكلته وترتيبه. وأهم من ذلك كله ما سينتتج عن تلك المشاركة الحقيقة على الأرض بين الجيش السوري وقوات حزب الله وقوات الحرس الثوري الإيراني. النتيجة لمن يفهم هي ما يسمى في الأحلاف العسكرية الحقيقة بفكرة الـ interoperability أي كما في عالم الكمبيوتر الذي يتوازن فيه جهاز كومبيوتر مع آخر compatible ذلك تكون الجيوش في الأحلاف العسكرية فيما بينها وبين بعضها مستوى عال من التنسيق، بداية من القيادة إلى العمليات إلى العقيدة، يجعل مهام الحرب سهلة.

وصول هذا النوع من التنسيق بين الثلاثة جيوش: الإيراني والسوسي وجيشه حزب الله، يخلق الجيش الشيعي المنضبط حسب قواعد مشتركة والداعم للصراع الآيديولوجي الإقليمي (طبعاً هناك من سيأخذ هذه الأفكار ويعيد صياغتها بشكل أكثر سلاسة لتصبح فكرته كالعادة، ولكن ليس هذا هو المهم)، المهم هو ماذا يعني حديث نصر الله بالنسبة للشكل الاستراتيجي الجديد في المنطقة وطبيعة ما هو مطروح من أفكار، مثل مؤتمر «جنيف2» أو رحيل الأسد.

يعني أول ما يعني خطاب نصر الله، في أي مفاوضات حول مصير النظام السوري، حجز المقدون الشيعي على طاولة المفاوضات ممثلاً بإيران. هذا على مستوى التمثيل، أما أجندته الحوار فيكون فيها الشيعة طرفاً، كراع إقليمي للنظام، مضافاً إليهم الكفيل الدولي ممثلاً بروسيا وسيرغي لافروف.

بكل أسف ليس للسوريين، نظاماً أو معارضة، كلمة في موضوع «جنيف2» بعد كلام حسن نصر الله.

النظام السوري ومعارضته سيكونان ليسا فاعلين فيما سيحدث في «جنيف2». المفاوضات ستكون بين الكفiliين الدوليين للنظام والمعارضة: بين روسيا وأميركا. كما أنها ستكون مفاوضات غير مباشرة بين الكفيل الإقليمي للنظام ممثلاً بإيران، والكفيل الإقليمي للمعارضة ممثلاً في تركيا ومعها بعض دول الخليج الفاعلة. ولا غرابة أن مقر المعارضة في إسطنبول، وكذلك دعمها مقابل الدعم الإيراني للنظام والوقوف العلني معه صراحة، كما جاء في كلمة حسن نصر الله التي لا مواربة فيها.

سيناريوهات «جنيف2» في ظل كلمة نصر الله هي ثلاثة لا غير. الأول هو التوصل لرسم خارطة طريق للمرحلة الانتقالية في سوريا. أما السيناريو الثاني فهو أن يكون «جنيف2» مثل لقاء وزير الخارجية الأميركي جيمس بىكر مع طارق عزيز قبل حرب تحرير الكويت، يعلن فيها الطرف الأميركي ومعه التحالف الأوروبي والعربي: لقد فشلت الدبلوماسية وحان موعد التغيير بالقوة، ولكن ليس هناك في الغرب من رأي عام يؤيد تغيير النظام بالقوة في سوريا، وهذا يقودنا إلى السيناريو الثالث وهو أن الغرب يريد أن يقول مثلاً كان يقول في القضية الفلسطينية: انظروا نحن نفعل شيئاً، نحن نتحرك ولا يرضينا كل هذه البشاعة التي نراها، وهو موقف أخلاقي وليس موقفاً سياسياً.

أغلب الظن أن «جنيف2» سيفشل أو سيتوصل إلى أنصاف حلول، ومعه تستمر حرب السنة والشيعة في معركتها التكتيكية والرمضية الأولى في سوريا لتحديد من سينتصر على الأرض، ومن الذي سيملئ شروطه في المفاوضات المقبلة.

وكما ذكرت في البداية.. معركة القصير في سوريا التي يتدخل فيها حزب الله بشكل معلن لترجح كفة النظام هي عكس سيدي بوزيد، فيعد القصير ندخل مرحلة أخرى من الصراع ليس على من يهيمن على مقدرات الدولة كما في دول الربع، ولكن من سيسيطر على مقدرات الإقليم. وكما في السيارات التي كان يأتي بها الصعايدة من الخليج التي بها ميكروفون يقول: «احترب السيارة ترجع إلى الخلف». اليوم يمكننا القول: احترب الربع العربي راجع بظهره، أو الربع العربي يعود إلى الخلف في صورة صراع بدائي نشأ قبل ألف عام.

أن تفرض حركة مثل حزب الله توجها استراتيجية لمنطقة بأكملها، وأن ينقل حسن نصر الله طبيعة الصراع إلى مستوى آخر، ومعه يطرح تصوراً استراتيجياً جديداً للمنطقة، هذا يعني أول ما يعني تراجع دور الدول لصالح الحركات في منطقتنا، وأن العلاقات الدولية في الإقليم ستنتقل من علاقات بين طوائف وتجمعات بشرية تسبح في فضاء غير فضاء الدول. وهنا أنسح قرائي بالعودة إلى مقال كتبته منذ شهور في هذه الصحيفة بعنوان «المسار الفاطمي للربع العربي». الإجابة هناك.

الشرق الأوسط

المصادر: